﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأعراف: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العِبرَةُ بِطِيبِ المَسْقِيِّ وخُبْثِه، لا بِطَهارَةِ الماءِ السَّاقِي وزَيْه

هذه الآيةُ من تمام المعنى في الآية قبلَها، تُعرِّف بعادةِ اللّه تعالى في إنباتِ الأرضين[1]، فبعدَ "أن ضرب اللّهُ إحياءَ البلاد بالمطر مثلًا لبعث الموتى؛ ضربَ اختلاف نتاجِ البلاد مثلًا لما في البشرِ من اختلاف الاستعداد لكلٍّ من الهُدى والكفر والرَّشاد والغيِّ، فقال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾"[2]، فالتَّفاوتُ بين النّاس في تقبُّل الوحي يماثل تفاوتَ الأرضين من حيثُ الإنباتُ، "فكما أنّا فاوتنا بين جواهرِ الأراضي بخلق بعضِها جيِّدًا وبعضِها رديئًا، كذلك فاوتنا بين عناصر الأناسيِّ بجعلِ بعضِها طيِّبًا وبعضِها خبيثًا، فالجيِّدُ العنصرِ يسهلُ إيمانُه، والخبيث الأصلِ يعسر إذعانُه، وتبعد استقامتُه وإيقانه"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾: (بلد) أصْلٌ يدلُّ على الصَّدْر، يُقالُ: بَلَّدَ الرَّجُلُ بِالْأَرْضِ: لَزِقَ بِها، وبَلَدَ بالمكان: أقام به، فهو بالِدٌ، والبلد: المكان المحيط المحدود المتأثِّرُ باجتماع قطّانهِ وإقامتهم فيه، وجمعه: بلادٌ وبلدان، وسمِّيت المفازة: بلدًا؛ لكونها موطنَ الوحشيّات، والمقبرةُ بلدًا لكونها موطنًا للأموات[4].

2) ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيثِ، وأصلُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/185.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بلد).

الطَّيِّبِ: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس، يقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للَّتي تصلحُ للنَّبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طَيِّبَةٌ؛ إذا كانت حلالًا، وامرأة طيِّبةٌ؛ إذا كانت حَصانًا عفيفة[1]، وأمّا قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ فإشارةٌ إلى الأرضِ الزَّكيَّة الطَّيِّبة التُّربة[2]، والبلد الطَّيِّب هو "الأرض ذاتُ التُّربةِ الخصبةِ المشتملةِ على كلِّ ما يتكوَّنُ منه النَّبات أو الغراسُ مع الماء والحرارةِ، وما تقتضيه طبيعةُ النَّبات، وما يكون غذاءً لهُ"[3].

3) ﴿يَخۡرُجُ﴾: أصلُ الخروجِ: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ، خَرَجَ خُرُوجًا: برز من مقرِّهِ أو حاله، سواءٌ كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسه، أو في أسبابِهِ الخارجة، قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾، وقالَ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾[4].

4) ﴿نَبَاتُهُۥ﴾: (نبت) أصلٌ يدلُّ على نماءٍ في مزروع، يقالُ: نَبَت، وأنبتت الأرض، ونبت الشَّجرُ، وكلُّ ما أَنْبَتَ اللهُ في الأرض، فَهُوَ نَبْتٌ، وهو ما يخرجُ من الأرضِ من النّامِيات، سواءٌ كان له ساقٌ كالشَّجر، أو لم يكن له ساقٌ كالنَّجْم، ويستعمل في كلِّ نام، نباتًا كان، أو حيوانًا، أو إنسانًا، والإنْباتُ يُستعملُ في كلِّ ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ [عبس: 27 - 31][5].

5) ﴿خَبُثَ﴾: (خبث) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاسِ، الخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكرهُ رداءةً وخساسة، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصله: الرَّديءُ الدُّخْلة[6]، الجاري مجرى خَبَثِ الحديد، هو خبيثٌ، أي: رديءٌ[7]، وقولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ هو الأرضُ السَّبِخة[8].

6) ﴿نَكِدٗاۚ﴾: (نكد) أصلٌ يدلُّ على خروج الشَّيء إلى طالبهِ بشدَّةٍ، وتعسُّر، والنَّكد: قلَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (طيب).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2874.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خرج).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نبت).
(6) تَقولُ: إنَّه لَعَفِيف الدُّخْلة، وإنَّه لخَبيث الدُّخْلة أي: باطِنُ أَمره، داخِلةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (دخل).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (خبث).
(8) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.

العطاءِ، والمنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ، نَكِد الرَّجلُ، فهو منكودٌ، إذا كثُرَ سؤالُه وقلَّ خيرُه. وناقَةٌ نَكْداءُ: قليلةُ اللَّبن طَفيفَةُ الدَّرِّ صَعْبَةُ الحَلْبِ[1]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلّا قليلًا عسيرًا في شدَّةٍ ضعيفَ المنفعة[2].

7) ﴿نُصَرِّفُ﴾: (صرف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، والصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيرِه، وتَصاريفُ الأُمورِ: تَخاليفُها، وتَصْريفُ الرِّياحِ صَرْفُها مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، وجعلُها جَنُوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبُورًا، وَكَذَلِكَ تَصْرِيفُ السُّيُولِ والخُيولِ والأُمورِ والآياتِ[3]، ومعنى التَّصريف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ: كالإعذار والإنذار والتَّرغيب والتَّرهيبِ، ونحو ذلك[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

المناسبةُ بين إحياءِ الغَيثِ للأرضِ السَّبخةِ والمُنبتةِ، وفِعْلِ القرآنِ بالقلوبِ الحيّةِ والميّتةِ

يخبر اللّهُ تعالى "أنَّ الأرضَ الكريمة التُّربةِ يخرج نباتُها وافيًا حسنًا غزير النَّفع بمشيئة الله وتيسيره، والذي خبثَ من الأرض كالسَّبخة منها لا يخرج نباتهُ إلّا قليلًا عديم الفائدةِ، فالأوَّل: مثلٌ ضربه الله للمؤمن يقول: هو طيِّبٌ وعمله طيِّبٌ. والثّاني: مثلٌ للكافر، يقول: هو خبيثٌ وعمله خبيثٌ، وفيهما بيانٌ أنَّ القرآنَ يثمر في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الطَّيِّبة التُّربة، ولا يثمرُ في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الرَّديئة السَّبخة"[5]، ومثل ذلك التَّنويع والتَّصريف البديع في البيان نُنوِّع ونكرِّر الحججَ والبراهين لتبيينِ الحقِّ لقومٍ يشكرون نِعَمَ الله، ويطيعونه[6].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نكد).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.
(5) طنطاوي، الوسيط: 5/293.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾:

الواو للاستئناف بغرض الاستطراد، في تفصيل أحوال البلاد والعباد

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ واوُ الاستئناف، فالجملةُ مستأنفةٌ[1] للاعتراض والاستطراد، فالجملةُ معترضةٌ بينَ قولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وقولِه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ وفائدةُ هذه الجملة: أنَّها "تتضمَّن تفصيلًا لمضمون جملةٍ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ إذ قد بيَّن فيها اختلافَ حالِ البلدِ الذي يصيبه ماء السَّحاب"[2]، ودخلت الواوُ على الكلامِ المستطرَد للمناسبةِ بين موضوع الآية السّابقةِ وهذه الآية[3].

دلالة التَّعريف في قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾:

كلُّ بلدٍ طابت تُربتُهُ؛ فإنَّهُ يأتي نباتُهُ مُثمِرًا بإذنِ ربِّهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء البلدُ معرَّفًا بالألف واللّام الدّالَّة على الجنسِ، فليس المرادُ بلدًا بعينه أنَّه طيِّبٌ، بل جنسُ البلاد الطَّيِّبة تتَّصف بكونِ نباتِها يخرج طيِّبًا وافرًا، فالبلدُ الطَّيِّب: هو "الأرضُ المَوصوفَةُ بالطّيب، وطيبُها زَكاءُ تُرْبَتِها ومُلاءَمَتُها لإخراجِ النَّباتِ الصّالحِ وللزَّرع والغَرْس النّافع، وهي الأرضُ النَّقيةُ"[4]، وهذا لا يختصُّ ببلدٍ بعينه.

بَلاغةُ التَّشْبيهِ التَّمثيليِّ:

المُنتفعُ بالقرآنِ كالبلدِ الطَّيِّبِ، والمُعرِضُ عنهُ كالسَّبخةِ الجَذِبةِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ إذ "المقصودُ من هذه الآية التَّمثيل، وليس المقصودُ مجرَّدَ تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأنَّ الغرضَ المسوق له الكلام يجمع أمرين: العبرةَ بصُنعِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/416، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

اللّه، والموعظةَ بما يماثلُ أحواله"[1]، فالآيةُ الكريمة جاءت لتشبيهِ حال المؤمن والكافرِ من نزول القرآنِ، وموقفِ كلٍّ منهما في الإيمانِ والبقاءِ على الكفر[2].

ويُبيِّنُ هذا التَّأويلَ قولُهُ ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّهُ به مِنَ الهُدى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ، أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللّهُ بها النّاسَ، فشَرِبوا، وسَقَوْا، وزَرَعوا، وأصابَتْ مِنها طائِفَةً أُخْرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلكَ مَثَلُ مَن فقُهَ في دينِ اللّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللّهُ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ به»[3].

غَرَضُ التَّمْثيلِ بالبلدِ الطَّيِّبِ والخبيثِ:

تَصويرُ المعقولاتِ بالحِسِّيَّاتِ، أقربُ للفهْمِ وأبلَغُ في إقامةِ الحُجَّةِ

آثر النَّظمُ التَّمثيل بقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ على التَّصريحِ بالمؤمنِ والكافر؛ لأنَّه لمّا ذكر الرّياح المبشِّرات والغيث الَّذي ينبتُ كلَّ الثَّمرات كان مناسبًا أن يبني على هذه الآيات والنِّعم موازنة بين النّاسِ في تلقّي ما نزل رحمةً بهم من الوحي، فجاء التَّمثيلُ بالبلد الطَّيِّب والخبيثِ على سبيلِ الاستطرادِ، فإنَّ "إيثارَ خصوص التَّمثيل بالأرضِ الطَّيِّبة والخبيثة استطرادٌ عقيبَ ذكرِ المطرِ وإنزاله بالبلدِ وموازنة بين الرَّحمتين"[4] رحمةِ المطر مع البلد الطَّيِّب والخبيث على حدٍّ سواء، ورحمةِ الوحي مع المؤمنِ والكافر كذلك، فغرضُ التَّمثيلِ بالبلدِ الطَّيِّب والخبيثِ تجسيدُ المعقولاتِ بأمورٍ حسيَّةٍ؛ لتكونَ ظاهِرَةً للعُقولِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184 - 185، وينظر: الطيبي، فتوح الغيب: 6/415.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/291، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (79).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/387، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112.

عِلَّةُ تَقديمِ البَلدِ (الطَّيِّبِ) على (الخبيثِ):

الإشْـعـارُ بـالاهـتـمـامِ بـالـطَّـيِّـب الشَّريفِ، والنَّبْذِ للخَبيثِ النَّبيثِ

قُدِّمَ ذِكرُ البلدِ الطَّيِّب على الخبيثِ لثلاثِ عِلَلٍ؛ الإيذانُ بأنَّ "أصلَ الأرضِ أن تكونَ طيِّبةً مُنبتةً، وخلافُه طارئٌ عارضٌ"[1]، والإشعارُ بالاهتمام، فالبلد الطَّيِّب الذي جيءَ به لتمثيلِ الإيمانِ، والإيمان هو الأصلُ، فكان لا بدَّ أن يقدِّم الأصلَ، ويؤخِّر الطّارئَ الحادث، والتَّشريفُ للمقدَّمِ ذكرُه، فهذه ثلاثةُ عللٍ لتقديمِ البلد الطَّيِّب على ذكرِ الخبيثِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱلْبَلَدُ﴾ دونَ (القريةِ):

القُرآنُ يَنزلُ في قلوبِ العبادِ، بقطْعِ النَّظرِ عن ماضِيها الإيمانيِّ بربِّ العِباد

لمّا كانَ ماءُ السَّحاب ينزل على الأرض جميعًا العامرِ منها وغيرِ العامرِ آثر التَّعبيرَ بالبلد؛ لأنَّه أعمُّ من القرية؛ فهو "يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ من الأرض عامرًا كان أو خرابًا"[2]، والقرية تُطلقُ على العامرة بالنّاس مسكونة، أو قد طرأ عليها الخراب، فإيثارُ البلدِ على القريةِ لهذا الملحظِ، وأمرٌ آخر: وهو أنَّ البلد يُطلقُ على العامرِ وغير العامر بالسُّكّانِ، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ نزل لمن كان عامرًا بالإيمانِ، ومن لم يكن عامرًا به، فالآيةُ تُنبِّهُ على أنَّ الإيمانَ ينبُت في قلوبِ العبادِ بقطعِ النَّظرِ عن ماضيها.

غَرَضُ تَذكيرِ لفْظِ ﴿وَٱلْبَلَدُ﴾:

عـبَّرَ بـالـبـلـدِ لا بـالـبـلـدةِ للعُمومِ، ولدفْعِ تـوهُّـمِ أنَّ المـرادَ بلدٌ بعينِه

وجاء بصيغةِ التَّذكير دون التَّأنيث؛ لأنَّ البلدَ أعمُّ من البلدةِ، فهي جزءٌ منه، والطّائفةُ من البلدِ بلدةٌ، والجمعُ: بلاد، وتُطلق البلدةُ على المفازة[3]، والنَّصُّ في العموم، فكان التَّعبير باللَّفظ الدّالِّ عليه أنسبَ، ولكي لا يُفهم أنَّ المرادَ به بلدةٌ بعينِها، فإنَّ اللَّفظَ العامَّ أبعدُ في دلالتِه عن الخُصوصِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(2) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.
(3) الخليل، العين: (بلد).

غَرَضُ وصْفِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ بـ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾:

المُدْعَمةُ بين البلدِ الطَّيِّبِ والقلْبِ الطَّيِّبِ، المُنْتفعِ بنُزولِ القرآنِ

وصف البلدَ بالطَّيِّب في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدَّلالةِ على جودة أرضه، وأنَّها كريمةٌ منبتة[1]، "وطيبُها زكاءُ تربتها وملاءمتها لإخراجِ النَّبات الصّالح، وللزَّرع والغرس النّافع، وهي الأرضُ النَّقيَّة"[2]، وغرضُ وصف البلد بكونهِ طيِّبًا، ليقع التَّمثيل على المؤمن الَّذي انتفع بهدي القرآن.

سِرُّ تَقديم المُسنَدِ إليه، على المُسنَدِ الفِعليِّ:

قُـدِّمَ ذِكـرُ البلدِ الطَّيِّبِ اهتمامًا بـــه، وتَـقـويـةً لمضمونِ الخَبرِ

جاءُ تقديمُ المُسندِ إليه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ على المسندِ الفعليِّ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقل: (يخرج نباتُ البلد الطَّيِّب)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ به؛ إذ تكرَّر مرَّتين: بالاسم الظّاهر، وبالضَّمير في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، والإخبارُ بالجملةِ الاسميَّة يدلُّ على قوَّة مضمونِها، لما فيها من دلالةٍ على التَّأكيد بثباتِ المعنى ورسوخهِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الإنبات بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تَصويرُ مُعْجزةِ خُـرُوجِ النَّباتِ مِـنَ الأَرْضِ، خُـرُوجًا مَوزُونًا سَلِسًا

عبَّرتِ الآيةُ عن بروز النَّبات منَ الأرضِ بالخروج ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ دون مرادِفاتِه؛ كالطُّلوع الَّذي يدلُّ على الظُّهور دون النَّفاذِ، فالطُّلوع: الظُّهور والبروز[3]، كما قال سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾ [الشّعراء: 148]، ونكتةُ ذلك أنَّ الخروجَ يدلُّ على النَّفاذ، فهو أكثرُ من مجَرَّدِ البروز والظُّهور، وقد جاء الخروجُ مع الإنباتِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53] وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21]، فالتَّعبيرُ بالخروج يدلُّ على كونه "خروجًا كثيرًا حسنًا سهلًا غزيرًا"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (طلع).
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ: ﴿يَخْرُجُ﴾:

تَصويرُ مَشْهدِ خُـرُوجِ النَّباتِ ونُموِّهِ، بوصْفٍ سائغٍ بديعٍ

ونكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ الدِّلالةُ على تجدُّد الخروجِ واستمرارِه؛ إذ هو فعلٌ مستمرٌّ غير منقطعٍ، كما أنَّ فيه تصويرًا لمشهدِ خروجِ النَّبات منَ الأرض، فيثيرُ مخيِّلة السّامع لاستحضارِ مشهد الإنبات وانبثاقِ النَّبات من الأرض بعد شقِّها وبروزِه منها.

المجازُ العقليُّ في قولِهِ: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

النَّباتُ لا يخرجُ بنفسِهِ، بلِ يُخرجهُ اللهُ الّذي خلَقَ فسَوّى، وقدّرَ فهدَى

في قولِهِ جلَّ شأنه: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أسندَ الخروجَ إلى النَّباتِ، والنَّبات لا يخرجُ بنفسِه، بل يخرجهُ اللّه تعالى، ويقوّي إرادةَ المجاز التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ فدلَّ على أن لا خروجَ إلّا بإذنِ اللّه تعالى، وفي إسنادِ الفعل إلى غيرِ فاعله على وجهِ الحقيقة إيجازٌ في القولِ، واقتصادٌ في التَّعبير، إذ لو جاء الكلامُ على الحقيقةِ؛ لقالَ: (والبلد الطَّيِّب يُخرِجُ اللّه نباتَه بإذنِه)، كما أنَّ إظهارَ لفظ الجلالة في هذا السّياق لا يناسبُ لكونِهِ في صفات الرُّبوبيَّة، فجاءت العبارةُ على غاية البلاغةِ والإيجاز، فأسند الخروجَ إلى النَّبات، ولم يذكر لفظَ الجلالةِ، وذكر بدلًا عن ذلك لفظَ الرُّبوبيَّة لكونِه أنسبَ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

تَشْبيهُ النَّباتِ بالإنسانِ الّذي يَنتظرُ الإذنَ للخُروجِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيثُ شبَّه النَّبات بالإنسانِ المتأهِّبِ للخروج، وينتظرُ أن يؤذنَ له بذلكَ، فحذف المشبَّه بهِ وأبقى صفةً من صفاتِه، وهي الخروجُ، وهذا يُظهر عبوديَّةَ النَّبات للّه تعالى، كما أنَّ في هذا التَّعبير من البلاغةِ ما ليس فيهِ لو جاء على وجه الحقيقةِ بأن يقالَ: والبلدُ الطَّيِّبُ يخرج اللّهُ نباتَهُ.

دَلالةُ اسْتِعمالِ لفْظِ (النَّباتِ) دونَ (الزَّرعِ):

استُعملَ لفظُ النَّباتِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ

نَبَاتُهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ، كالزَّرع والشَّجر لدلالةِ النَّبات على كلِّ ما نبتَ من الأرضِ؛ فـ "الزَّرع: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجر ما له ساقٌ وأغصانٌ، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّبات يعمُّ الجميع؛ لأنَّه ما ينبت من الأرضِ، أي: يخرجُ منها"[1]، فالنَّباتُ شاملٌ لكلِّ ذلك.

النَّباتُ يَشملُ الزَّرعَ والشَّجرَ وغيرَهُما، ممّا يَنبتُ في الطّبيعةِ بأمْرِ الله

سِرُّ إضافةِ النَّباتِ إلى ضَميرِ البلدِ، في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾:

أضاف النَّباتَ إلى الضَّميرِ العائد على البلدِ، في قولِه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لاختصاص غالبِ البلدان بنوعٍ من النَّبات لا ينبتُ في غيرِه، فكأنَّ ما نبت في بلدٍ ما مختصٌّ بالبلد الَّذي نبتَ فيه، ولا ينتسب إلى غيره، أو أنَّ النَّبات الذي يخرُجُ في بلدٍ له خصائصُ لا تكونُ في غيرِه من البلدان، كما هو معلومٌ لدى أهل الاختصاص في تميُّزِ بعض البلدان من بعضِها الآخر بمزايا في التُّربة والهواء تجعلُ نباتَها أفضل من النَّوعِ نفسِه في مكانٍ آخر، وذلك هو المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرّعد: 4].

خَصَّ اللهُ كلَّ بلدٍ بنوعٍ منَ النَّباتِ يَتميَّز فيه مِن غيرِه، في الطَّعْمِ والجَودةِ

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

عبَّر النَّظم بالباء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدَّلالة على أنَّ النَّبات إنَّما يخرجُ بإذنِ اللّه تعالى وبمشيئته وتيسيره[2].

خُروجُ النَّباتِ مُتوقِّفٌ على مَشيئةِ اللهِ تعالى

فائدةُ تعليقِ خُروجِ النَّباتِ على الإذنِ:

قال تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقُل: (بأمرِ ربِّه) إشعارًا بالعناية به، "ليدلَّ على تشريفِ ذلك النَّبات، فهو في معنى الوصفِ بالزَّكاء، والمعنى: البلدُ الطَّيِّبُ يخرج نباتُهُ طيِّبًا زكيًّا مثله، وقد أشارَ إلى

ليس المرادُ بالإذن، إذنَ التّكوين، ولكنْ إذنَ التّكريمِ والتّمْكين

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/386، وينظر: السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.

طيب نباته بأنَّ خروجَه بإذن ربِّه، فأريد بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ هو إذنُ عنايةٍ وتكريم، وليس المراد إذنَ التَّقدير والتَّكوين؛ فإنَّ ذلك إذنٌ معروف لا يتعلَّق الغرض ببيانهِ في مثل هذا المقامِ"[1].

بَلاغةُ الكِنَايةِ في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ "كنايةٌ عن كثرةِ النَّبات وحسنهِ وغزارةِ نفعه"[2]، ولما فيه من المدحِ والتَّشريف[3]، "ونسبة الإسنادِ الشَّريفة الطَّيِّبة إليه تعالى، وإن كان كلا النَّباتين يخرجُ بإذنه تعالى"[4]، فهو تشريفٌ له بذكرِ ﴿رَبِّهِۦ﴾ في التَّعبير؛ لأنَّ ما أذِنَ اللهُ تعالى فيه، فلا بدَّ أن يكون طيِّبًا وفيرًا مباركًا، ولأنَّ هذا النَّبات هو مرعى المخلوقات وغذاءُ النّاس، فهو رزقُ الله تعالى لخلقهِ، جرتْ به مشيئتُه، فكانَ التَّشريف لهُ تعظيمًا لهذهِ النِّعَمِ والمِنَن.

النَّباتُ الّذي يَخرُجُ بإذنِ اللهِ، غَزيرُ العطاءِ، كثيرُ النّماءِ

بَلاغةُ الإضافة إلى الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾:

ذكرُ لفظِ الرُّبوبيَّة أنسبُ في سياق الإنباتِ ونزول المطرِ، فقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾، أي: "المربّي له بما هيَّأه له"[5]، وقد سلف ذكرُ الرّياح وسوقها السَّحابَ ونزول المطر وإخراج النَّباتِ، وكلُّ هذا من صفات الرَّبِّ ﷻ، فكان التَّعبيرُ به أبلغَ في الآية.

الرُّبوبيَّةُ هي الأنسبُ في سِياقِ إخراجِ النَّباتِ، لحاجتِهِ إلى رعايةٍ في كلِّ مراحِلِه

سِرُّ إضافةِ ضَميرِ النَّباتِ، إلى لفْظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾:

وفي إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾ تكريمٌ لهذا النَّبات، وأنَّه ممّا يجبُ أن يشكرَ العبادُ ربَّهم عليه، وأنَّه مقصودٌ بخصائصِه الغذائيَّة، وصفاتِه الحسيَّة، وأنَّه خرجَ برعايةٍ ربانيَّة، لمقصدٍ عظيمٍ، وغايةٍ مِلؤُها المصلحة والمنفعةُ للعباد.

النَّباتُ خرجَ برعايةٍ ربانيَّةٍ، لمصلحةِ الكافَّةِ منَ البَشريّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/79 - 80، وينظر: الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/377 - 378.

(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

غَرَضُ عطْفِ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ على ما قبلَها:

إجـراءُ التَّمثيلِ لاختـلافِ حـالِ الـنَّـاس، عند تَلقِّي الوحْـيِ، بين مُؤْثِرٍ ومُنْكِرٍ

جملةُ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]، فهو من التَّوسُّطِ بين الكمالين بعطفِ الجملةِ الخبريَّة على مثلِها، فغرضُ عطف البلد الخبيثِ على البلد الطَّيب؛ لإجراء التَّمثيل الَّذي قصدتهُ الآيةُ الكريمة، وإيقاعِ المقارنة؛ إظهارًا للفرق بين هُدى المؤمنين وضلالِ الكافرين.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾:

دَلالـةُ المـذكـورِ عـلى المسـتـورِ، مـن بَلاغـةِ الآيِ المسْطورِ

حذفَ النَّظمُ الشَّريف لفظةَ (البلد) من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ إيجازًا في التَّعبير، فهي صفة لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (والبلد الّذي خَبُث)؛ وساغ الحذفُ اكتفاءً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عليه[2].

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسْمِ الصريح والتَّعبيرِ بالاسْم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِى﴾:

كـما أنّ صِـفةَ الخَبَثِ حادثةٌ، فالكُفرُ حـادِثٌ مُخالفٌ للأصلِ

عدلَ عن التَّعبيرِ بالاسم الصَّريحِ إلى الاسم الموصولِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾؛ ليعبِّرَ بصلة الموصول المضمِّنةِ فعلًا ماضيًا إيماءً إلى أنَّ تلك صفة الخبثِ حادثةٌ، وأنَّ الأصلَ في الأرضِ قبولُها المطرَ وإنباتُها الزَّرع، وكذلك ما جرى له التَّمثيل بذلك؛ فأصل فطرة النّاس الإيمانُ، وأمّا الكفر فهو حادث مخالف للأصل، و"إيثارُ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو صفةٌ مشبَّهة في مقابلِ ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ الدّالِّ على تجدُّد الفعل"[3] يومئ إليه قولُه ﷺ: «وإنّي خلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ، فاجتالَتْهم»[4]، وقولُه ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يهوِّدانِه، أوْ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/415 - 416، وتمام عبارة الطّيبي: "(الذي خبث) الدّالّ على تجدّد الفعل إيماء إلى معنى ما ورد في صحيح مسلم"، ورأينا تتميم العبارة بما أثبتناه.
(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).

يُنَصِّرانِهِ»[1]، إشارةٌ منه ﷺ إلى أنَّ ما سوى الفطرةِ، وهو الإسلام، لا يخرُجُ عن وصفه بالخُبثِ، فلمّا كان تشبيهُ الكافر بالبلد الخبيثِ عبَّر عن صفة الخبث باللَّفظ الدّالِّ على الحدوث والتَّجدُّد، وهو الفعل فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، ولم يقل: والبلدُ الخبيث.

فائِدةُ الطِّباق بين لفظَيْ: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ طباقُ إيجابٍ[2]؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادَّينِ مثبتين ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾، وفائدةُ هذا الطِّباقِ تنبيهُ السّامع إلى الفرقِ بين طرفي الطِّباق، وفيه زيادةٌ في إيضاحِ المعنى المرادِ، وهو التَّباين بين البلد الطَّيب وغير الطَّيِّب؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياء، فلو كانت البلادُ كلُّها طيِّبةً لما كان في طيبها ميزةٌ، فلمّا ذكر أنَّ فيها ما هو سبخٌ، زادَ فضلَ الطَّيِّب منها.

بِضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضّدُّ

غَرضُ الحصْرِ في قوله: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ حصرَ النَّبات الَّذي يخرجه البلد الخبيثُ بكونهِ نكدًا، "وكونُ نباتِ الذي خَبُثَ محصورًا خروجُهُ على حالةِ النَّكدِ مبالغةٌ شديدةٌ في كونهِ لا يكون إلّا هكذا، ولا يمكن أن يوجدَ إلّا نكدًا، وهي إشارةٌ إلى من استقرَّ فيه وصفُ الخبيثِ يبعدُ عنه النُّزوع إلى الخيرِ"[3].

مَن خَبُثَ طَبعُه؛ نَفرَ منَ الخيرِ، ولم يَستَبِنْ سبيلَ المؤمنين

بَلاغةُ فنِّ الاحْتباكِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أشارَ البقاعيُّ أنَّ "الآيةَ من الاحتباك"[4]، وقد فصَّل ذلك العلّامةُ ابن عاشورٍ رحمه الله

براعة الحذْفِ ناشئة عن براعة التَّقديرِ، وتُبرزُ جمالَ التَّصويرِ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4775).

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.

(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424، وأمّا تعريف الاحتباك فهو "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السجلماسي، المنزع البديع، ص: 195.

بقوله: "والذي يظهرُ لي: أن يكون (الذي) صادقًا على نبات الأرضِ، والمعنى: والنَّبات الذي خَبُثَ لا يخرجُ إلّا نكدًا، ويكون في الكلام احتباكٌ؛ إذ لم يذكر وصف الطَّيِّبِ بعد نباتِ البلد الطَّيِّب، ولم تُذكرِ الأرضُ الخبيثة قبل ذكر النَّبات الخبيثِ، لدلالةِ كلا الضِّدَّين على الآخرِ، والتَّقدير: والبلدُ الطَّيِّب يخرجُ نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنَّبات الذي خبث يخرج نكدًا من البلدِ الخبيثِ، وهذا صنعٌ دقيقٌ لا يُهمل في الكلامِ البليغِ"[1].

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في: ﴿نَكِدًا﴾:

النَّعتُ والحالُ مُتقارِبان في الدَّلالةِ على ثُبوتِ النَّكِدِ وتَجدُّدِه

وردَ في قوله: ﴿نَكِدًا﴾ قراءتان: قراءةُ الجمهورِ بكسرِ الكافِ، وقراءةُ أبي جعفرٍ بفتحها[2]، فالقراءةُ الأولى جاءت بصيغةِ الصِّفة المُشبَّهةِ، والقراءةُ الثّانية جاءت بصيغةِ المصدرِ، ففي نصب ﴿نَكِدًا﴾ على القراءَتينِ وجهان: "أحدُهما: أن ينتصبَ حالًا، أي: عَسِرًا مُبْطئًا. والثّاني: أن ينتصبَ على أنَّه نعتُ مصدرٍ محذوف، أي: إلّا خروجًا نَكَدًا، وصَفَ الخروجَ بالنَّكَد كما يوصف به غيرُه، ويؤيِّده قراءةُ أبي جعفر: (إلّا نَكَدًا) بفتح الكاف"[3].

بَلاغةُ التَّشبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

المَثلُ إبرازٌ للدَّلائلِ العجيبةِ المُساقةِ للدَّلالةِ على الحقِّ المُستبينِ

بعد أن مثَّل النَّظم الكريم للمؤمن والكافرِ بالبلد الطَّيِّب والبلد الخبيث؛ بيَّن في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أنَّنا كما صرَّفنا الآيات فيما تقدَّم ذكرهُ، فكذلك نصرِّف الآياتِ في هذا[4]، فالمشَبَّهُ هو التَّمثيلُ بالبلدِ الطَّيِّب والخبيث، والمشبَّه به هو المشارُ إليه، وهو تصريفُ الآيات؛ لأنَّ "الإشارةَ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/270.
(3) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والزمخشري، الكشّاف: 2/112، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(4) مكيّ القيسي، الهداية: 4/2404.

﴿ٱلْآيَتِ﴾ إلى تفنُّنِ الاستدلال بالدَّلائلِ الدّالَّة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوعِ البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيِّن المقرَّب في جميع ذلك"[1].

دَلالةُ الإشارةِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ باسمِ الإشارةِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَتِ﴾ للإشارةِ إلى "تفنُّنِ الاستدلالِ بالدَّلائل الدّالَّةِ على عظيم القدرة المقتضيةِ الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوع البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاعِ به"[2]، فهي إشارةٌ إلى تصريفِ الآياتِ البديع، حيثُ سلف التَّعبيرُ ببيان إنعامِ الله تعالى بإيجادهِ السَّمواتِ والأرضَ، والنِّعم في الإنبات والإثمار وإخراجِ ما هو نافعٌ للأحياء، فمثلُ هذا التَّصريفِ الذي رأيتم "نصرِّف الآياتِ، ونبيِّنُها في تصريفٍ محكم مقرّبٍ للنُّفوس"[3].

البلدُ الطَّيِّب والخبيثُ، كِلاهما من آياتِ الله في تَصريفِ الكوْنِ والوُجودِ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿نُصَرِّفُ﴾ دون غيره:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَتِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفعل: ﴿نُصَرِّفُ﴾ دونَ (نُفصِّل)؛ للدَّلالة على تَكرار الآياتِ وتنويعها لا تفصيلها، وذلك في بيانِ "الآياتِ الدّالَّة على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آية، وحجَّةً بعد حُجَّة"[4]، فالتَّصريف يدلُّ على التَّرديد والتَّكرار والتَّنوُّع والتَّنويع، فقوله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَتِ﴾ أي: "نردِّدها ونكرِّرها، يعني: ما ذكرنا من الآياتِ المتعدِّدة المفصَّلة المبيّنة من أوَّل هذه السّورة، نصرِّف، ونكرِّر، ونبيِّن سائرَ الآياتِ الَّتي اشتمل عليها هذا الكتابُ الكريمُ أو غيره، وأمّا التَّفصيل؛ فيدلُّ على الشَّرح

التَّصْريفُ يدلُّ على التَّكرارِ والتَّنويعِ، والتَّفصيلُ يُذكرُ بعدَ الإجمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

والبيان بعد الإجمالِ والإحكام، ولا يدلُّ على التَّكرير والتَّنويع، فالتَّصريف أعمُّ من التَّفصيلِ، فإنَّ إجمالَ القول، ثمَّ تفصيله هو نوعٌ من أنواعِ تصريفِ الكلام والآيات.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُصَرِّفُ﴾:

تَصريفُ الآياتِ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا ينقطعُ، رحمةً منَ اللهِ تعالى بخَلْقِه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ لمّا كان التَّصريفُ دالًّا على التَّبديل والتَّكرير، وهذا يقتضي أنَّ وقوعَه ليس في زمانٍ واحدٍ، بل في أزمنةٍ متتابعة، فهوَ يقع باستمرارٍ، فكان من مقتضى البلاغة أن يعبِّرَ عن ذلك التَّصريفِ بالفعل المضارعِ للدَّلالة على حدوثِه وتجدُّدِه مع الدَّلالة على الاستمرار، وهذا يشيرُ إلى عظيمِ نعمةِ اللّه تعالى في هداية خلقِه؛ إذ لم يرسلْ لهم آيةً واحدة بل آياتٍ كثيرةً على وجه التَّكرار والتَّصريف والدَّوام والاستمرارِ، ويشير ذلك إلى سنَّةٍ عظيمةٍ من سنن اللّه تعالى في خلقِه، فإنَّ هذا المثلَ الذي سيقَ في هذه الآية إنَّما هو من مقتضى هذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ "يعني: كما ضربنا هذا المثلَ كذلكَ نبيِّنُ الآياتِ الدّالَّةَ على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آيةٍ وحجَّة بعد حجَّة"[1]، فلا انقطاعَ ولا تبديل لسنَّة اللّه ﷻ.

فائِدةُ الالتِفاتِ منَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

التّعظيمُ مُناسِبٌ لبيانِ غايةِ التَّمثيلِ، في تصريفِ الآياتِ الباهرةِ

التفتَ الخطابُ من الغيبة في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم المناسبِ لتصريف الآياتِ، أي: نصرِّفها بما لنا من العظمة، ولذا نجد أنَّه قد آثر لفظ الرُّبوبيَّة، وهو اسم ظاهرٌ دالٌّ على الغيبةِ، ولم يُعبَّر بالضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيم، فلم يقل: (بإذننا)؛ لأنَّ الكلامَ ابتداءً قام على وصف حالِ البلدين، فلمّا انتهى من وصفِهما؛ حسُن الالتفاتُ إلى بيان المصرِّف سبحانه بالتَّكلُّمِ.

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

دَلالةُ الجمعِ للفظِ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

جاءتِ الآياتُ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: كلَّها[1]، فأفاد الجمع الدَّلالةَ على جميع الآيات، وهذه الآياتُ هي الدَّلائلُ الكونيَّة الدّالَّةُ على عظيم قدرتهِ جلَّ ذكره، الحُجَجُ والبراهين الدّالَّة على وحدانيَّتهِ[2]، فهي تعمُّ ما اشتملَ عليهِ القرآنُ من ملفوظِ الآيات، وما اشتمل عليه الكونُ من مبثوثِ عجائبِ الخلق.

اشْتمالُ المعنى هنا، على آياتِ الكَوْنِ المَنْشُورِ، وآيـاتِ الـكـوْنِ المَسْطُورِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (قَوْمٍ) في الآية:

وصف اللّه القوم بأنهم يشكرون بقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾، أي: يشكرونَ نعمةَ اللّه تعالى، وهم المؤمنون[3]، "تنبيهًا على أنَّهم موردُ التَّمثيل بالبلد الطَّيِّب، وأنَّ غيرَهم موردُ التَّمثيل بالبلد الخبيث، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]"[4]، ولم يقل: (كذلك نصرِّف الآياتِ للشّاكرين)؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (قَوْمٍ) يدلُّ على أنَّ قيامَهم كانَ على الشُّكرِ للّه تعالى.

اجتماعُ القَوْمِ على الشُّكرِ، من أبْلَغِ الطَّاعةِ، وأرْوعِ الانقيادِ لله

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ، في قولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾:

خصَّتِ الآيةُ في فاصلتِها الشّاكرين بالذِّكرِ في سياق النِّعم الَّتي "موضوعها الاهتداءُ بالعلم والعمل والإرشاد"[5]، والآيات التي صرَّفها ﷻ؛ لأنَّ الشّاكرينَ هم المنتفعون من تلك النِّعم والآيات[6]، وأوضحُ ما يكونُ الانتفاعُ بتلك النِّعمِ إنَّما هو في الشُّكرِ.

أَذِنَ اللهُ للمؤمنِ في الإخْباتِ، كما أذِنَ للبَلدِ الطَّيِّبِ في الإنْباتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/416، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 8/187، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.

وأُشيرَ بذكر الشُّكرِ في فاصلةِ الآية، إلى "نعمتين مذكورتين في الآية للمؤمن، وهو أنَّ الله تعالى لم يجعله كالبلدِ الخبيثِ، والثّاني: أنَّه أذنَ لهُ في الإيمانِ والطّاعات، كما أذِنَ للبلد الطَّيِّب في إخراج النَّبات"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، في الآية:

الشُّكرُ اعترافٌ للمُنعِمِ بالإغداقِ، وهو ما لا يَستحقُّه إلّا الكريمُ الخلّاقُ

وعبَّر عن الشُّكرِ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، للدَّلالة على أنَّ شكرهم للنِّعم مستمرٌّ متجدِّدٌ، فهم قومٌ شأنهم الشُّكر، وتقبُّل النِّعمة بالقيام بحقِّها؛ ينبعث الشُّكر من أنفسهم المؤمنة[2].

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾:

صِفةُ الشُّكرِ تَستحقُّ الإنعامَ بالتَّصريفِ لذاتِها، لا من حيثُ تَعلُّقُها بمعيَّنٍ

جاء التَّعبيرُ عن الشُّكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ مطلقًا عن التَّقييد، فحذف المفعول به ولم يبيِّنْه؛ تعميمًا لمتعلَّقات الشُّكر، فهم يمتازون بالشُّكر عمومًا؛ فحذف المفعولَ؛ لأنَّه أرادَ التَّعميم، وأرادَ الاهتمامَ بمجرَّد الشُّكر لا من حيثُ كونهُ متعلَّقًا بأحد يستحقُّه، بل إنَّ صفة الشُّكر استحقَّت أن ينعمَ الله تعالى عليهم بهذا التَّصريفِ والتَّبيين لذاتها، وفي ذلك بيانٌ لمكانة الشُّكر عند الله تعالى، وقد يدلُّ على أنَّهم يشكرونَ هذه الآياتِ؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها بسببِ صفةِ الشُّكر، وليس لأنَّهم يشكرون معيَّنًا، وفيه أيضًا أنَّ المشكور معلومٌ بالضَّرورةِ، وهو الله تعالى، فيكونُ العدول عن الذِّكر للإيجاز.

بَلاغةُ التَّرقِّي بين الفاصلَتَيْن: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، و﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾:

قال تعالى في ختام الآيةِ السّابقة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57]

تـذكُّـرُ النِّـعَـمِ مَبعثُ معرفةِ حـقِّـهِ ﷻ، بالشُّكرِ على تلكِ الآلاءِ

وقال في ختام هذه الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وهو من باب التَّرقّي منَ الأدنى إلى الأعلى؛ "لأنَّ من تذكَّرَ آلاءَ اللهِ تعالى؛ عرفَ حقَّ النِّعمة، فشكرَ"[3]، فالتَّذكُّر يسبقُ الشُّكر، وهو أدنى منه.

(1) الواحدي، البسيط: 9/195.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البلدُ) و(القريةُ):

البلدُ يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ منَ الأرض، عامرًا كان أو خرابًا، واستعمالُهُ بمعنى القريةِ دلالةٌ عرفيَّةٌ، ومن قبيلِ ذلك إطلاقُهُ على مكَّة المكرَّمة[1]، وأمّا القَرْيةُ؛ فهي من (قَرَيَ) وهو أصلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً؛ لِاجْتِماعِ النّاسِ فيها، فالقَرْية: هي المصرُ الجامع، وكلُّ موضع يجتمع فيه ناسٌ[2]، وفي الآية استعمل البلدَ للدَّلالة على عموم الأرض، ولم يرد مجتمَعَ النّاس.

القريةُ هي مَجمعُ النَّاسِ، والبلدُ يَعمُّها وغيرَها ممَّا لم يُسكنْ

(الإذنُ) و(الأمرُ):

الإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازتهِ والرُّخصة فيه[3]، فهو يدلُّ على إعطاء حرّيَّة الفعل والسَّماح بفعلهِ والقبول بوقوعهِ بعد مَنعٍ، أمّا الأمرُ؛ فيقالُ باعتبار طلب الفعل، وهو نقيضُ النَّهْيِ[4]، فهو طلبُ الفعل على سبيلِ الإباحةِ أو النَّدب أو الوجوب.

الإذنُ: ما يكونُ بعدَ منْعٍ، والأمرُ: يكونُ قبلَ الفعْلِ

فالإذنُ ما يجيزُه اللّه لعباده من أفعالٍ أو أقوال، ويمكنُ أن يكونَ محبوبًا أو مكروهًا أو مباحًا، ولا يلزمُ منه التَّكليفُ أو الثَّواب أو العقاب، أمّا الأمرُ؛ فهو ما يطلبهُ اللّه من عبادهِ من فعلٍ أو تركٍ، ويكون واجبًا أو مستحبًّا، ويلزمُ منه التَّكليف والثَّواب.

(النّكِدُ) و(السَّيِّئُ):

النَّكدُ: قلَّة العطاءِ، المنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ[5]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلّا قليلًا، عسيرًا في شدَّةٍ، ضعيف

النَّكِدُ قِلَّةٌ وتنغيصٌ، والسُّوءُ قُبحٌ مَعنويٌّ وحِسّيٌّ رَخيصٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزابادي، البصائر: (قرى/قري).
(3) الراغب، المفردات: (أذن).
(4) ابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (نكد).

المنفعة[1]، أمّا السَّيِّئُ؛ فهو من باب القبح، تقولُ: رجلٌ أسوأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سوءاءُ، أي: قبيحةٌ[2]، وفي الآية الكريمة وصفَ النَّباتَ بكونهِ نَكِدًا؛ لأنَّه أرادَ قلَّته وعسرهُ وانتفاء منفعتهِ، وليس المرادُ أن يوصفَ بالقُبحِ.

(التَّصريفُ) و(التَّفصيلُ):

التَّصريفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبداله بغيرهِ، وتَصْريفُ الرّياحِ: جعلُها جَنوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبورًا[3]، فالتَّصريفُ: هوَ التَّغييرُ في الشَّكلِ والنَّوع والعدد.

التَّصريفُ تَغييرٌ يَطرأُ على الشَّيءِ، والتَّفصيلُ تبيينُ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ

أمّا التَّفصيلُ؛ فهوَ من فصل، وهو كلمةٌ تدلُّ على تمييزِ الشَّيء من الشَّيء وإبانتهِ عنه، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: 133]، أي: مبيَّنات، وقيل: تفصيلُها: فصلُها وتمييزُها بعضُها من بعضٍ[4]، والتَّفصيل عكسُ الإجمال، ويعني: تقسيمَ الشَّيء وتحليلهُ إلى جزئيّاتهِ المختلفة، وتفاصيله الدَّقيقة، والمراد منه توضيحُ المعنى بالتَّفاصيل، والتَّركيز على كلِّ واحدٍ ممّا فُصِّل على حِدة، ويذكر ما له علاقة به بطريقة مفصَّلةٍ، فالتَّفصيلُ يتعلَّق بالتَّحليلِ بعدَ الإجمالِ، فالمرادُ منهُ التَّوضيحُ، والتَّصريف يتعلَّق بالتَّغيير والتَّنويع والمرادُ منه تكثيرُ الآيات.

فمعنى تصريفِ الآياتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ كالإعذار والإنذار والتَّرغيبِ والتَّرهيب[5]، وهذا التَّنويهُ يناسبهُ التَّصريفُ.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فصل).

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.

(الزَّرعُ) و(الشَّجرُ) و(النَّباتُ):

الزَّرعُ: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجرُ: ما له ساقٌ وأغصان، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّباتُ يعمُّ الجميعَ؛ لأنَّه ما ينبتُ منَ الأرضِ، أي: يخرجُ منها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء التَّعبيرُ بالنَّبات؛ لأنَّه يعمُّ جميعَ ما تنبتُ الأرضُ، وهو أبلغُ في السّياقِ.

النَّباتُ أعمُّ منَ الشَّجرِ الَّذي له ساقٌ، وخاصِّيّة الـزَّرعِ أنّـه لا ساقَ له

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»